فلسفة وما بعد الحداثة

احمد عبد الحليم عطية (مصر)

ينقلنا جيل جديد من الكتّاب والنقّاد والمفكّرين العرب الى عتبات الحداثة، والحداثة البعدية. واذا كان البعض يقصر رصده لاتجاهات الحداثة على النقد كما فعل علي الشرع في دراسته «التفكيكية والنقاد الحداثيون العرب» (مجلة دراسات، الاردن) ويذكر لنا اسماء: ادونيس وجابر عصفور ومحمد بنيس وكمال ابو ديب: فاننا نستطيع في مجال الفلسفة ان نشير الى جهود عديد من المفكرين العرب ساهموا في طرق ابواب الحداثة تحت اسم التفكيكية وفلسفة الاختلاف. وكان عبد الكبير الخطيبي اول من سلك هذا الاتجاه في كتابه النقد المزدوج تلاه فيما بعد عبد السلام بنعبد العال في كتابيه «التراث والاختلاف» و«اسس الفكر الفلسفي المعاصر، مجاوزة الميتافيزيقا» ومطاع صفدي الذي كرس جهوده في اكثر من جبهة ثقافية للفلسفة الجديدة في مجلات: الفكر العربي المعاصر، العرب والفكر العالمي، وفي مشروع الينابيع لنقل نصوص هذا الفكر وفي كتابيه «استراتيجية التسمية» ثم نقد العقل الغربي، الحداثة وما بعد الحداثة، موضوع هذه الدراسة، وكل من هاشم صالح وكاظم جهاد وعبد العزيز بن عرفه.

واذا كان من الصعب رصد الجهود المختلفة التي تناولت ما بعد الحداثة نظرا لعدم تحدد المفهوم في ثقافتنا العربية المعاصرة فقد بذل النقاد جهدا كبيرا في تناوله تحت اسماء متعددة تارة باسم «النقد الجديد» واخرى باسم «التفكيكية» وانصبت معظم جهودهم في مجال الترجمة خاصة في اللغة والادب والنقد. فقد ترجم صبري محمد حسن كتاب كريستوفر نورس «التفكيكية النظرية والتطبيق» 1979 كذلك نقل رعد عبد الجليل جواد الفصل الاول من نفس الكتاب بمجلة الثقافة الاجنبية ببغداد، وتناولته بالتعليق والدراسة سمية سعد بمجلة فصول القاهرية وترجم يوئيل يوسف عزيز كتاب وليم راي «المعنى الادبي من الظاهرتية الى التفكيكية» وتناول الناقد العراقي عبد الله ابراهيم التفكيكية في دراستين صدرتا بالمغرب وغيرهما.

اما في مجال الفلسفة فنستطيع ان نتوقف امام كلّ جهود كلّ من عبد السلام بنعبد العال، الذي يرى اننا لا يمكن ان ننظر الى التراث الا من زاوية ومنطق الاختلاف فلا يمكن ان تعتبر امة من الامم لها تراث الا بالقدر الذي يصبح فيه طرفها الحالي (نقيضا) يختلف عند طرفها القديم عبر مساحة الاختلاف. وعبد الكبير الخطيبي الذي يدعو الى نقد مزدوج ينصب علينا كما ينصب على الغرب ويأخذ طريقه بيننا وبينه فيرمي الى تفكيك مفهوم الوحدة، الوحدة التي تثقل كاهلنا والغلبة التي تجثم علينا.. ويرى انه علينا ان نفتح المجال لفكر يتخلى عن الذاتية الحمقاء ليتمسك بالاختلاف». ومطاع صفدي الكاتب متعدد الجوانب والمفكر المؤسسة.

يطلق صفدي كما يتبين من برنامجه المنشور في العدد الاول من مجلة الفكر العربي المعاصر بعنوان «مركز الانماء القومي واستراتيجية التنمية» عند محاولة اعادة النظر في ازمة الثقافة العربية المعاصرة يتلمسها في النتاجات التي اصدرتها ويبحث عن مقوماتها وعقباتها وحصيلة آثارها في تقدم الوعي العربي. وحاول ان يفتح نوافذ على العالم من معاناة الثقافة والمثقفين لدى الغرب ليكشف عن عوامل اتفاق وتمايز بينها وبين المعاناة عندنا (العدد الاول ص 12). وهو يبشر بالحداثة ويزهو بانتشارها الكاسح وسيادتها المنتصرة ببضعة اقلام واقل ما يمكن من الورق المطبوع والاغلفة والعناوين، وبدون طبقات ولا احزاب ولا امبراطوريات شق فكر الاختلاف طريقه، كسر منهجية النص المؤدلج واخترق استبداديات المنهجيات المصنعة»، كما كتب في العدد التاسع من «العرب والفكر العالمي»، وبالاضافة لهاتين المجلتين المكرستين للدعوة الى اقتحام الحداثة البعدية نجد مساهمته الكبيرة فيما اطلق عليه «مشروع مطاع صفدي للينابيع» الذي نقل عددا كبيرا من نصوص الحداثة لعدد من الفلاسفة في مقدمتهم المؤلفات الكاملة لميشيل فوكو التي ساهم في ترجمتها ومراجعتها وتقديمها للعربية.

ويكتب «على هامش النص» عن الحداثة البعدية في تقديمه لترجمة كتاب فوكو «الكلمات والاشياء»: «انه اذا كان ثمة من تاريخ لمولد الحداثة البعدية سيكون هو لحظة الكشف عن هذا المشروع الثقافي الغربي

في اوج تعارضه ووحدته الكيانية معا بين ميتافيزيقيته واركيولوجيته بين منهج للتمثيل وللتشميل واخر للتخصيص بين سلطه لا متناهية لفكر لا متناهي ومعاييره وعقائده وبين ما يسمى باسم عام للمتناهي، هذا الشيء الذي لا يمكن القول عنه الا بخصيصة واحدة وهي انه المختلف» (9)

واذا كان لا بدّ من تقدير لدور فوكو هذا فهو انه اخرج الفكر الحداثوي البعدي من اطار الثورة الاولى: نيتشه وبين مشروع يتذكر نسيان كينونة هيدجر الى ممارسة موضوعاتية وعيانية لما يمكن ان تعنيه «الحداثة البعدية». وفي تقديمه للترجمة العربية «للمراقبة والعاقبة» لميشيل فوكو سيجد ان السؤال الاصلي في كل هذا الانتاج الشاهق هو كيف يمكن للفكر ان يكتشف ترميز الواقع ويفككه بصورة يغدو فيها هذا التفكيك نفسه هو الواقع ولكن متمفصلا على محاوره ونصوصه ووقائعه. فالتفكيك يفرض طريق معاملته، هذا هو الفارق الحاسم بينه وبين كلّ المنهجيات الاخرى التي تنتهي غالبا الى ايديولوجيات، فالتفكيك يضع المنهج لاول مرة خارج سلط الايديولوجيا.

ويأتي كتابه «نقد العقل الغربي» فلسفة الحداثة وما بعد الحداثة ليعلن المشروع الثقافي الذي تبلور في مجلتيه الفكر العربي المعاصر، والعرب والفكر العالمي بالاضافة لمقدمات الترجمات المختلفة التي اطلق عليها عنوان «الينابيع» والكتاب واسطه العقد في ثلاثية مطاع صفدي: استراتيجية التسمية، نقد العقل الغربي، ثم نقد الشر المحض «الاستبداد في منعطف الالف الثالث» الذي لم يصدر بعد، والكتاب «الحداثة وما بعد الحداثة» يتكون من خمسة اقسام كلّ منها من عدّة فصول وتدور الاقسام على التوالي على: عتبات الحداثة - نقد النقد - القوة القووية - فلسفة القطائع - عصر الحداثة البعدية والخاتمة ما بعد نقد النقد «الحداثوية البعدية مع مقدمة هامة عند: «التأسيس في المختلف» ومدخل «في السؤال العربي للفسلفة».

يرى صفدي انه اذا كان ثمة مدخل حقيقي لفهم العقل الغربي فهو صراعه مع الحداثة. وكانت قصة هذا الصراع تعني قصة نقد العقل الغربي لذاته باعتباره هو العقل دون اية تبعية او تخصيص. وهي قصة نقد هذا النقد كذلك ولعلّ نقد النقد يشكل اهم خصوصية لهذا العقل الغربي (ص 5) لقد كانت صفة العقل الغربي الاولى، والتي منحته الريادة والقيادة انه هو العقل - الذي - ينقد دائما واول ما ينقد هو ذاته. يقول: «لقد اخترنا نحن في هذا الكتاب ان نقرأ العقل الغربي كما قرأ هو ذاته وكما عرف هو خصائصه، وان نقرأ نقده هو لانظمته المعرفية ونتاجاته المتتابعة ثم تحولاته عنها، وان نقرأ نقده لنقده وحداثه المتناهي عندما تعفو على آثار حداثه اللامتناهي وصولا الى ساعة العقل الاخيرة عندما يواجه نفسه عاريا من كلّ مخترعاته السابقة وعائدا الى مواقعيته الاصلية في جسد فرد قبل ان يكون في رأس الانسان».

ومنذ ان حقق العقل الغربي قطيعته الكبرى مع الواحد الثيولوجي - وهو امتيازه الاكبر - فقد ادخل القطيعة في صميم بنيته، صارت ايقاعا دائما لازماته المتغيرة المتقلبة. وفكر القطيعة، وايقاعها المتأصل هو الذي جعل العقل الغربي في نهاية مطافه يواجه اوج الحداثة، كان الانفكاك عن الواحد الثيولوجي منطلق الحداثة، لكن الواحد الذي انزل الى الارض غدا ارضيا وحيا ومحركا من داخل عضوية المشروع الثقافي الغربي.. حتى الحداثوية البعدية هي لحظة وداع ذاتها وكانت مهمتها ان تحقق تصفية حسابات الحداثة عبر قطيعاتها كلها. وقد اوشكت على انجاز المهمة وهي تقف الآن ليس في مواجهة التخوم، بل تقف فوق اطرافها الاخيرة لتنظر الى ما وراء التخوم التي شكلت مواقعية المشروع الثقافي الغربي عبر رحلة الالفين. كما لو ان الالف الثالث هو عصر القطيعة المطلقة. ومن هنا يعلن صفدي ان فلسفة الاختلاف قد نجحت في الا تجعل من نفسها مذهبا والا تدخل الاكاديميات والمتاحف وحافظت على استقلالية سؤالها.

ويتساءل سؤالا هاما: هل كنا نعرف العقل الغربي حق نحن العرب، وكل الحضارات الاخرى المتبقية من خطاب المشروع الثقافي الغربي. لقد حاربناه نحن كذلك بدورنا لكن دون ان نكسب منه لا ثروة ولا استعمارا معاكسا، بل فزنا معه باعادة انتاج لعزلتنا، وسميناها استقلالا. في حين كان الغرب يغربن العالم كله ويستولي علينا عبر انبهارنا بما هو فيه مختلف عنا، في اشيائه والاعيبه وتقنياته، كل ذلك دون ان نعرف سر قوته الحقيقية. علينا ان نشرع - على الاقل - في فهم الآخر ذي الحضور المكتسح لخشبة المسرح اليومي كله. وان نقرأ العقل الغربي بعينه فهذا يعني ان نصحبه عبر رحلاته المتلاحقة في نقد ذاته ونقد نقده، حتى لا نخال اننا نرى هذا العقل إلاّ وهو في حالة مفارقة مضطربة لتسمياته ومواقعه فهو

يوجد في نقده وليس في موضوعه.. وفي الوقت الذي جرب هذا العقل كل ادوات تحليله وتفكيكه فانه لا يمكن اختلاق المعارضة من خارجه ان لم تكن ذات معاصرة وجوانية من داخل خطاباته نفسها. ومع ذلك فان قصة العقل الغربي مع ذاته ليست امثولة للآخرين ولا نموذجا للتقليد، لكنها هي كذلك قصة للعقل قابلة لان تكتب لغير حروفيتها الاصلية وان تقرأ بغير عيون وألسنة ابطالها وحدهم، فهي تبدو كما لو كانت قصة لكلّ عقل يفارق الامتثال مع اصنامه ويقرر المغامرة في مجهوله الخاص. عند ذلك فقط - عدم جهله او تجاهله او رفضه - يصير نقد العقل الغربي هو نقد العقل العربي.

ويتساءل في المدخل «في السؤال العربي للفلسفة «كيف يستطيع العربي الممنوع من السؤال والمستبعد من قبل الخطاب الايديولوجي السائد ان يحس ان له ثمة كيانا !!

ان المشكلة بالنسبة لعصر تنوير عربي معاصر هي كونه لا يعي بعد انه مطلوب احداث قطيعة مزدوجة في لحظة نهضوية واحدة مع غياب الطبيعة الاصلية (الطابعة) وراء المثيولوجيا اللاهوتية، ومع غياب الطبيعة الثانية (المطبوعة) وهي العقلانية الغائبة كذلك وراء مصطلح التقنية بصورتها الاستهلاكية الاحتكارية. ان افتقاد المشروع الثقافي العربي للطبيعة في كلّ مرة تدفعه فيها بعض ظروف نهضوية معنية نحو التحسيس بها ومحاولة طلبها جعل المشروع يعوم في الفراغ. بينما احدث المشروع الثقافي الغربي قطيعة واحدة حاسمة مع ما قبلية تاريخه الحديث لذلك استطاع ان يدخل عصر حداثة مستمر دون ان يسحق وراءه ما يعيق قدرة النقد والمراجعة الدائمة بحيث تبقى سلطة التنوير دائما اعلى من كلّ سلطة للامر الواقع فهنا نظام الانظمة المعرفية معرض دائما للفضح والتعرية، ولا شيء يخفي وجهه او يعرقل التعرف على فعاليته. انه مكشوف وقابل للانكشاف. مهما حاول ان يتماهى مع العقل ليظل العقل بفضل التنوير قادرا على اكتشافه باعتباره احد نتاجاته.

ويخبرنا صفدي في الخاتمة تحت عنوان «نحو قطيعة الفراغ» انه لا يمكن للحداثة البعدية ان تحقق قطيعة مع الحداثة مثلما حققت الحداثة قطيعة مع النظام المعرفي القديم. عاشت الحداثة على اطروحة القطيعة بينما تجيء الحداثة البعدية في ارض سهل مستوية لا تكاد تحتاج حتى الى ذكرى نقائضها. فهي لا تطالب بالقطيع والقطائع لان ما كانت - تطالب به قد تحقق وصار من مخلفات الماضي. لعلّ من اهم ما يؤكد الملامح الاساسية للحداثة البعدية انها لم تعد تقنع كما كانت تفعل ثورات الحداثة السابقة بمجرد خلق المعارك الايديولوجية على هامش التحولات التقنية. بل ان الحداثة البعدية لا تجد امامها اليوم ما يشكل عقبات او حواجز تمنع انتشارها وتحددها الى مختلف مجالات الحياة بدون ان تفتح جبهات من الصراع الايديولوجي المقهور. لحظة الحداثة البعدية بالرغم من انبثاقها في زمن المشروع الثقافي الغربي اصلا الا انها هي المؤشر الاول على كونه فكر الخارج فرض نفسه هذه المرة بكل قوة على ايديولوجيا المشروع الثقافي الغربي نفسه. (228) قد تكون لحظة الحداثوية البعدية الراهنة حسب صفدي هي لحظة استعادة الفلسفة لسؤالها المركزي فيما يجعلها تعيد املاء الفراغ حولها بكل ما تعرضه من احوال الانطولوجيا في الكائن غير منفصلة في الآن ذاته عبر حضور الكينونة من مواقع الكائن نفسها وليس بعيدا عنها. فالسؤال الفلسفي في زمن الحداثوية البعدية يقع ما بعد النقد ثم ما بعد نقد النقد انه كما يقول صفدي في آخر سطور كتابه «يخرج من كونه سؤالا فلسفيا الى ان يكون سؤال الفلسفة».

احمد عبد الحليم عطية (مصر)